بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

وهي: سورة مكية، تركِّز بشكل واضح علىٰ قضية الوحي والرسالة.

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية، وبدء غير مألوفٍ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ عز وجل، الموصوف بهذه الصفات:

الأولىٰ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في ملكه، الغالب بقدرته.

الثانية: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في صنعه، وأقواله، وأفعاله.

الثالثة: المالك لكل شيء ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُلكًا وخَلقًا وعبيدًا وتدبيراً.

الرابعة: وهو ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ المتعالي عن مشابهة الممكنات والحوادث.

الخامسة: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ القادر، القاهر بالاستعلاء وكمال الإلٰهية.

السادسة: له الهيبة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ من علوِّ شأن الله وهيبته ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يَتشقَّقنَ ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي: بعضها فوق بعض.

السابعة: له الحمد ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لِما له عز وجل من الجلال والكبرياء ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ بأمر ربهم ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين، ﴿أَلَآ﴾ حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الموصوف بهذه الصفات، الذي يوحي إليك ﴿هُوَ﴾ كذلك: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لأوليائه، وهذه: هي **الصفة الثامنة.**

التاسعة: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم، والذي وَسِعتْ رحمته كل شيء، سبحانه وتعالىٰ.

هذا: هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق أن يُعبَد وحده، وأن لا يُعبَد سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ آلهة لهم وعبدوهم: لست مكلَّفًا بإجبارهم علىٰ الإيمان، ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب علىٰ أقوالهم وأفعالهم، وسيجازيهم عليها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ إنما أنت نذير لهم فقط.

وبعد أن بيّن الله عز وجل أنه أوحى إلىٰ الأنبياء من قبله، يقول له:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني، وكما أوحينا إلىٰ الأنبياء من قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد.

وكان وحينا لك ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان قومك، وذلك: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ وتخوف أهل ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلاد الأقرب، فالأبعد، ثم الأبعد، حتىٰ تصل دعوتك للدنيا كلها.

ولكن: بماذا تنذر، وتخوِّف؟ الجواب: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: تنذر بعذاب يوم الجمع للخلائق، وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا في وقوعه.

وساعتها: يكون الناس ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ﴾ آخر منهم ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ كلٌ علىٰ حسب إيمانه وعمله؛ حيث إنهم مختلفون في الإيمان بالله، والاستعداد للقائه سبحانه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

نعم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ جميعًا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين، أو ضالين ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك؛ لحكمة يعلمها هو سبحانه، ولله الحكمة البالغة في كل شيء، وبهذا ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ في الإسلام، ويجعله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ويدخله جنته، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين اتخذوا من دونه أولياء: يُضِلهم عن الهدىٰ، ويُدْخِلُهم النار، وعندها ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ يشفع لهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدافع عنهم.

ثم ينكر ربنا عز وجل علىٰ هؤلاء الظالمين اتخاذهم أولياء من دونه، فيقول جل وعلا:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

يعني إن أرادوا اتخاذ وليًّا حقًّا!!؟ فليس هناك سوى الله عز وجل، حيث ﴿هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ بحق، ولا ينبغي أن تكون العبادة إلَّا له وحده، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولا يفعل ذلك سواه، ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وليس ذلك لأحد غيره سبحانه.

أيها الأحبة في الله.. !!

فهمنا الآن: أن هناك فريقين يختلفان، ومن المعلوم: أنه لا بد عند كل خلاف من حاكم وحُكم!!، والحاكم بالطبع: هو الله، ولا حكم إلَّا منه، لذلك يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

يعني ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن﴾ أي: ﴿شَىْءٍ﴾ وأي أمر من الأمور: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، أي: بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، يفصلُ فيه الفصل الحق، ويحكم فيه الحكم العدل، قل لهم يا محمد: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العادل:

أولًا: هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي لا إلٰه سواه.

ثانيًا: وهو ﴿رَبِّى﴾ الذي لا رب سواه.

ثالثًا: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع الأعداء، وطلب كل خير.

رابعًا: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع له في كل المهمات، استخارة، واستعانة، وتوبة واستغفارًا.

وهو: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني ذلكم الله ﴿فَاطِرُ﴾ خالق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما، وما فيهما، ومن فيهما، ولا يقدر علىٰ ذلك غيره، **وهذا خامساً.**

سادسًا: ﴿جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم؛ تفضُّلًا عليكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [الروم: ٢١].

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم، ويزيد من أعدادكم ﴿فِيهِ ۚ﴾ في هذا التزاوج، ولا يقدر علىٰ ذلك سواه، ولا يعلم الحكمة من ذلك إلَّا هو سبحانه.

سابعًا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ أي: كهو، أو كذاته، ﴿شَىْءٌ ۖ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

ثامنًا: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الموجودات.

تاسعًا: وهو ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بجميع الموجودات.

عاشرًا: ﴿لَهُۥ﴾ وحده سبحانه ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو المالك والحافظ لأمرهما، ومَن فيهما.

الحادي عشر: ﴿يَبْسُطُ﴾ عز وجل ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾ يضيِّق ويُفقِّر مَن يشاء كذلك من عباده.

ثاني عشر: ﴿إِنَّهُۥ﴾ جل جلاله ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من التوسعة والتضييق ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو يعطي مَن يشاء بعلم، ويمنع عمن يشاء بعلم، سبحانه وتعالىٰ جل شأنه.

هذا الإلٰه العظيم هو الذي:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

نعم إن ما ﴿شَرَعَ﴾ الله ﴿لَكُم﴾ يا أمّة محمد ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ هو ﴿مَا﴾ شرَّع، و ﴿وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو نفسه ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَ﴾ هو ﴿مَا﴾ شرعنا ﴿وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ عليهم جميعًا الصلاة والسلام، هذا الذي شرعه الله من الدين هو ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام، يعني: عدِّلوا أركانه، وواظبوا على العمل بأحكامه، وحافظوا من أن يقع فيه زيغ، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ولا تختلفوا حول عقائده، وتعاليمه، وأحكامه؛ حيث إن الجماعة رحمة، والفِرْقة عذاب، لذلك ﴿كَبُرَ﴾ وعَظُمَ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وشقَّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة الإسلام، والوحدة فيه وبه، على أية حال: ﴿ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿يَجْتَبِىٓ﴾ ويصطفي ﴿إِلَيْهِ﴾ لتوحيده، وعبادته ﴿مَن يَشَآءُ﴾،﴿و﴾ كذلك ﴿يَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي إلى طاعته ﴿مَن يُنِيبُ﴾ ويميل إليه سبحانه.

ولكن، إذا كان الله عز وجل قد أمر الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، وهو إسلام الوجه لله!! فلماذا نجد الناس والأمم متفرِّقين، كما هو مشاهد في دنيا الناس؟

انجواب من الله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

يعني هذا التفرق ليس لعدم وضوح الحق، أو قصور في تبليغه لهم، ولكن ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي: حسدًا، وطلبًا للرياسة، وإعراضاً عن الحق،﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة: ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب الكافرين منهم في الدنيا،هذا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ **أي** : من بعد جيل الخلاف الأول، وهم اليهود والنصارى: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من الإسلام ﴿مُرِيبٍ﴾ أشد الحيرة والقلق.

وابتعادًا عن هذا التفرُّق، وإنقاذًا للأمة من هذا الاختلاف يأمر الله النبي ﷺ، وهو القدوة بقوله عز وجل:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التفرُّق والخلاف الذي وقع فيه الآخرون، عليك بالآتي:

أولًا: ﴿فَادْعُ﴾ الناس لهذا الدين، والإيمان به، والعمل بتشريعاته، والاجتماع عليه.

ثانيًا: ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ أنت عليه، قدوة لهم ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من ربك.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، التي بسببها اختلفوا.

رابعًا: ﴿وَقُلْ﴾ للدنيا كلها ﴿آمَنتُ﴾ وصدقت ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي: بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، لا نفرِّق بينهم.

خامسًا: ﴿وَ﴾ قل ﴿أُمِرْتُ﴾ من ربي ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم.

سادسًا: وقل ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ كلنا عبيده، ولا إله يعبد بحق سواه.

سابعًا: وقل ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وكلٌّ مؤاخذ بعمله.

ثامنًا: وقل لهؤلاء المعاندين ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأنَّ الحق أصبح واضحًا، ولا حاجة إلى جدال حوله.

تاسعًا: وقل: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة للحساب.

عاشرًا: ﴿وَ﴾ قل ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع؛ فيفصل بيننا، وينتقم منكم.

قالوا: ليس لهذه الآية نظير في القرآن إلَّا آية الكرسي، من حيث اشتمالها عشر جمل مستقلات، كل واحدة منفصلة عن أختها، وهي حكم برأسها.

ولأن الدعوة الصافية إلى الله تعالى: تلقى الاستجابة!! ولأن الكافرين سيحاولون صَدَّ المؤمنين عن هذه الاستجابة!! فقد قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يجادلون المؤمنين ﴿فِي اللَّهِ﴾ دين الله، وهو دعوة الإسلام؛ ليصدوهم عن سلوك طريق الهدى، واتباع محمد ﷺ، هؤلاء: ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ جدالهم، وعللهم، ومناقشاتهم ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولا وزن لها، ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ في الوقت ﴿غَضَبٌ﴾ من الله، بسبب كفرهم، وجدالهم بالباطل، وصدهم الناس عن الهدى، ﴿و﴾ أيضًا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة.

ولمَّا تقرَّر هذا التحذير من الجدال في دين الله بالباطل، والعمل علىٰ صد الناس عن الإسلام!! خوف الله مَن يفعل ذلك بعذاب يوم القيامة، فقال عز وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ عز وجل هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنس الكتاب، أي: كل الكتب علىٰ الأنبياء ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي شرعه لعباده، وفرضه عليهم، وبيَّن فيه مصالحهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَ﴾ كذلك هو الذي أنزل ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ ليسود العدل، وينال كل واحد ما يستحق، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ بوقت الساعة إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ، فهو الذي يعلم وحده وقت قيامها، علىٰ أية حال ﴿لَعَلَّ﴾ مجيء ﴿ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

لهذا، وبعد أن أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بشرعه، فاعملوا بالكتاب والعدل، قبل أن تقوم الساعة، ويفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

ولكن!! ومع هذا التحذير!! فهناك مَن يستعجل عذاب يوم القيامة استهزاءً وكفرًا وعنادًا.. نعم:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ﴾ كفروا، وهم الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ ويقولون مستهزئين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، وباليوم الآخر فهم مؤمنون بها، و ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ أي: من عذابها، ولا يستعجلونها، ﴿وَ﴾ ما ذلك منهم إلَّا لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي: ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون في وجودها، وينكرون وقوعها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ﴾ عن الحق ﴿بَعِيدٍ﴾ لإنكارهم عدل الله وحكمته.

لذلك: علىٰ الإنسان أن يعمل للآخرة، وأن لا يعمل للدنيا فقط مُعرضًا عن الآخرة؛ ظنًا منه أنه بذلك يحصِّل رزقًا، أو اعتقادًا منه أن العمل للآخرة يمنع أو يقلل الرزق، فالرزق مضمون، والعمل للآخرة غير مضمون.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ تبارك وتعالىٰ ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يوصل لهم المنافع، ويدفع عنهم البلاء.

ومن مظاهر لطفه أنه ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ فيوسع علىٰ هذا، ويضيِّق علىٰ ذاك؛ حسب علمه بمصالح عباده، وبما هو أنفع لهم، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ القادر علىٰ كل شيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجزه شيء.

لذلك: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: ثوابها ويعمل لها ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي﴾ ثواب ﴿حَرۡثِهِۦۖ﴾ أي: عمله، حيث نجازيه علىٰ الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ما يشاء الله، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: من كان عمله للدنيا فقط، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ ما قُسِم له فقط، لا ما يريده هو، ﴿وَ﴾ قد خسر، حيث ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وثوابها ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ ينفعه في يوم لا ينفع فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وبعد أن بيّن الله عز وجل ميزة كتابه الذي فيه شرعه، وضرورة العمل به، وخطورة الانحراف عنه!! يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتباع شرع غير شرعه، فيقول جل وعلا:

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾

يعني أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أَمۡ لَهُمۡ﴾ آلهة ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ لله، فيما يزعمون ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الفاسد دينًا آخر، وهو ﴿مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ ويشرعه لعباده كالشرك، وإنكار البعث؟ لقد ساروا وراء أهوائهم، واتبعوا ضلالًا، ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ﴾ الوعد، بـ ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ والجزاء يكون في يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ﴾ ونزل بهم العذاب الآن، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك حين تقوم الساعة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين كفروا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من جزاء عملهم السيئ، وهو العذاب، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا محالة، ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهم آمنون مطمئنون ﴿فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ﴾ وهي أطيب بقاعها وأماكنها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الطيب للمؤمنين ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾من الله سبحانه وتعالى.

و ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الطيب للمؤمنين هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ويؤكد لهم أنه واصل لهم، وبعد هذا التوضيح: ﴿قُل﴾ للمكذبين المعاندين ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا الإسلام الذي أدعوكم إليه، وهو الموصل إلى هذا الفضل الكبير ﴿أَجْرًا﴾ أتقاضاه منكم، ولكني أسألكم حسن الاستماع، والتقبُّل و ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ خالصة لله ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعف له أجرها وثوابها، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أساء وتاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع.

ثم يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتهام المشركين لرسول الله ﷺ، بالكذب على الله، فيقول جل وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يعني أيصدقونك فيما أنزل من القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ عليك إنه ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يتلوه علينا، ويخبرنا به علىٰ أنه أوحي به إليه، لو كان الأمر كما يدعون!! ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي، ولكنه لم يفعل!! وبالتالي: فأنت صادق، وعلىٰ كل حال: دعهم يقولون، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كله، ومنه افتراءهم عليك، ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ التي أنزلها ووعد بها في كتابه، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وما تُكِنُّه الضمائر.

وبعد أن برَّأ المولىٰ رسوله ﷺ من هذا القول الشنيع، الذي يستحق قائله العقاب ندب إلىٰ التوبة، فقال تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني توبوا إلىٰ الله، وكُفُّوا عن الكذب عليه، ومحاربة رسوله، وإيذاء أتباعه يغفر لكم، ﴿و﴾ اعلموا أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا تابوا إليه، وأقلعوا عن خطاياهم، وأصلحوا أمورهم ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي وقع فيها المرء، قبل توبته عنها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي من يشاء، ويتجاوز عمن يشاء، بحكمة منه سبحانه وتعالىٰ وإتقان.

ولمَّا ندب الله إلىٰ التوبة: بيَّن الذين يستجيبون والذين لا يستجيبون، فقال جل وعلا:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لدينهم فيما دعاهم إليه، ويطيعونه فيما أمرهم به، ﴿و﴾ لذلك ﴿يَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ فوق ما طلبوا، وما يستحقون، ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فلا يستجيبون، و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لمَّا كان من المعلوم أن الله سبحانه يجيب دعاء المؤمنين، ويقبل التوبة عنهم، ويعفو عن سيئاتهم!!

فلماذا قد يكون المؤمن في شِدَّة وبلية، أو فقر ومجاعة، ثم يدعو ولا يرى أثر الإجابة؟ الجواب:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

حقًّا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ جميعًا، وأغناهم ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على بعضهم البعض، وظلموا، وتكبَّروا، ﴿وَلَٰكِن﴾ يعلم سبحانه أحوالهم، وما يصلحهم لذلك ﴿يُنَزِّلُ﴾ لهم الرزق ﴿بِقَدَرٍ﴾ حسب ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وتقضيه حكمته عز وجل، حيث ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالىٰ: «**إن من عبادي مَن لا يُصلحه إلَّا الغنىٰ، ولو أفقرته لفسد حاله، وإن من عبادي مَن لا يُصلحه إلَّا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله**» .

وفي رواية: «**لأفسدت عليه دينه**».

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر للناس، وقت حاجتهم إليه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يئسوا من نزوله إليهم، وذلك: لحكمة يعلمها هو عز وجل، ﴿وَ﴾ هو سبحانه الذي ﴿يَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ الواسعة على جميع خلقه، ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿ٱلْوَلِىُّ﴾ المحسن للمؤمنين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود الذي يحمده أهل طاعته.

وكل ذلك: يدل على قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته.

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالىٰ آيات تدل على ألوهيته ووحدانيته، فيقول جل جلاله:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الكثيرة، الدالة على ألوهيته، ووحدانيَّته، وقدرته، وحكمته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على هذا النحو الفريد البديع، ﴿وَ﴾ كذلك خلق ﴿مَا بَثَّ﴾ نشر وفرَّق ﴿فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ على اختلاف أنواع الدواب وأحجامها

وأشكالها.. إلخ، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ في يوم الحشر ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يجمعُ الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيدٍ واحد.

هذا، ﴿وَ﴾ اعلموا:

أولًا: أنه ﴿مَآ أَصَٰبَكُم﴾ في الدنيا ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ مكروه، أو شدة، أو بلية، أو فقر، أو مرض.. إلخ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من الذنوب، وهذا تكفير له.

ثانيًا: ﴿وَ﴾ أنه سبحانه وتعالىٰ ﴿يَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ من ذنوبكم، فلا يؤاخذكم بها، بل يعفو عنها.

ولذلك قيل: هذه أرجىٰ آية في القرآن؛ لأن الله عز وجل لا يجمع علىٰ عبده بين عقوبتين، ولا يعاقب علىٰ ما سبق، وإن عفىٰ عنه.

ولمَّا بشَّر المؤمنين وطمأنهم، خوَّف الكافرين، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ يا مشركون ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بهاربين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عذاب الله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يدافع عنكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم ويمنع عذاب الله عندما ينزل بكم.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ كذلك:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الكثيرة أيضًا: هذه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن، التي تسير ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال!!

ثم، ﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ يوقف الريح عن تسيير هذه السفن، أسكنها وأوقفها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ في مكانهن واقفات، ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: ظهر الماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ علىٰ بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ علىٰ نعمائه.

وعلىٰ هذا: ينبغي أن يكون حال المؤمن علىٰ البلاء من الصابرين، ومع النعماء من الشاكرين.

﴿أَوْ﴾ إن يشأ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ يهيج الريح، فتعصف بالسفن، و ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن غرقًا ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: أصحابها من الذنوب، ﴿وَ﴾ هو سبحانه الذي ﴿يَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من ذنوب عباده، فلا يجازي ويؤاخذ عليها.

ثم يقول تعالىٰ مهددًا لمن لا يعتبر بآياته سبحانه:

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ ينبغي أن ﴿يَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ هذه وغيرها، ولا يعتبرون بها، فيؤمنون أنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ولا مهرب من عذاب الله، بسبب جدالهم هذا، وكفرهم الناتج عنه، أو كفرهم وجدالهم الناتج عنه.

وبعد أن ذكر ربنا تبارك وتعالىٰ من دلائل التوحيد ما ذكر، أتبع ذلك بتحقير ما يصرف عن الاعتبار والإفادة من هذه الدلائل، وهو الانبهار والانشغال التام بمتاع الدنيا، فقال:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني ينبغي أن لا يصرفكم شيء عن توحيد الله، وعبادته، وبخاصة ما كان من أمر الدنيا، وإلَّا ﴿فَـ﴾ إن ﴿مَآ أُوتِيتُم﴾ أي: ما آتاكم الله ﴿مِن شَىْءٍ﴾ قليل أو كثير ﴿فَـ﴾ هو من مَتَاعِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائل، الذي لا ينبغي الاغترار به عن توحيد الله، ولا الانشغال به عن عبادة الله، ﴿وَ﴾ أما ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب والنعيم فهو ﴿خَيْرٌ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ منه؛ لأنه أبدي غير زائل ولا منته، ولكن لمن هذا النعيم والثواب الأبدي، الذي عند الله تعالىٰ؟

وهنا يكون الجواب الواضح بتحديد صفات جماعة المسلمين، وبالميزان الذي تتعرف به عليهم، وتتخلق معهم بأخلاقياته، إنهم الذين يقول عنهم ربهم: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ حيث حدد المولىٰ عز وجل من صفاتهم ما يلي:

الصفة الأولىٰ: أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بربهم، واتبعوا نبيَّهم، والتزموا بشريعتهم.

الصفة الثانية: أنهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون في كل أمورهم.

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة نجد من صفاتهم:

الصفة الثالثة: أنهم ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ يبتعدون عن كَبَائِرِ ﴿ٱلْإِثْمِ﴾ كالبدع واختلاق الشبهات، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي ناتج القوة الشهوانية.

الصفه الرابعة: أنهم ﴿إِذَا مَا غَضِبُوا۟﴾ لأنفسهم، أو في أمر دنيوي ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يتسامحون، ولا يؤاخذون.

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة، نجد كذلك من صفاتهم:

الصفة الخامسة: أنهم ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ فاتبعوا رسله، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واجتمعوا علىٰ دينهم، ولم يتفرقوا فيه.

الصفة السادسة: أنهم ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا عليهما، وحافظوا علىٰ إتمامها في مواقيتها وأركانها وهيئاتها.

الصفة السابعة: أنهم ﴿أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا ينفردون برأي، بل يجتمعون عليه، وما تشاور قوم إلَّا هُدوا لأرشد أمورهم.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أُمراؤُكم خِيارَكم، وأغنياؤُكم سُمَحَاءَكُم وَأُمورُكم شورىٰ بينكم؛ فظهرُ الأرض خير لكم من بَطنِها، وإن كان أمراؤُكم شرارَكم، وأغنياؤكم بُخَلاءَكُم، وَأُمورُكم إلىٰ نسائِكم فبطن الأرض خير لكم من ظَهْرِهَا**».

الصفة الثامنة: أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: رزقهم الله ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة نجد من صفاتهم ما يلي:

الصفة التاسعة: أنهم ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ ووقع عليهم الظلم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ممن ظلمهم واعتدىٰ عليهم، ليسوا بالعاجزين، ولا بالذليلين.

ثم يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

في هذه الآية الكريمة نجد من صفات الجماعة المسلمة أخيرًا:

الصفة العاشرة: أنهم إذا انتصروا ممن ظلمهم، كان انتصارهم ﴿جَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فقط من غير زيادة عليها، وإلَّا صار ظالمًا.

وينبغي أن يكون ملحوظًا أن هذا الانتصار، وإن كان مشروعًا لهم، فهو مشفوع بأمرين:

الأول: شرط المماثلة.

الثاني: أن العفو عند القدرة أولىٰ.

ولذلك: يحث ربنا عز وجل علىٰ العفو عند القدرة علىٰ الانتصار، بل علىٰ الصفح أيضًا إذْ يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهو وعد بالخير، لا يقاس عليه شيء في التعظيم.

حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ابتداءً، ولا في رد العدوان عن أنفسهم.

ولكن يلاحظ جيدًا أنه ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ وفق هذه الشروط ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم﴾ في المؤاخذة، أو العقاب ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ لأن هذا حقهم.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ في المؤاخذة والعقاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويعتدون عليهم، أو يسلبون حقوقهم، أو ينتهكون حرماتهم، أو ﴿يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ نعم: بغير الحق ويتكبرون فيها ويفسدون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

وفي النهاية: يذكِّر ربنا بالصبر علىٰ الأذى، والصفح والعفو، فيقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ علىٰ الأذىٰ، بشرط أن لا يكون في ذلك الصبر تشجيع للمعتدي بزيادة الاعتداء ﴿وَغَفَرَ﴾ وستر السيئة ﴿إِنَّ﴾ صبره ﴿ذَٰلِكَ﴾ وغفرانه هذا ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ التي ندب الشارع إليها، وأثاب عظيمًا عليها.

هذه صفات الجماعة المسلمة!! مَن عرفها، وتحلَّى بها، وحافظ عليها فقد هداه الله، ومَن تجاهلها، أو لم يؤمن بها فقد أضلَّه الله:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

يعني ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ من الناس، عن هذه الصفات، ومن ثَمَّ لا يتحلىٰ بها، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولىٰ أموره ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إضلال الله له، وهو من الظالمين، ثم يصوِّر الله عز وجل حال هؤلاء الظالمين، الذين أضلهم الله فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هؤلاء في يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وتأكَّدوا من صدق تهديد الله لهم في الدنيا به ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ عودوا بنا إلى الدنيا؛ لنعمل صالحًا، فهل لنا ﴿مِن سَبِيلٍ﴾، ولا يكون لهم جواب، ولا إجابة.

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ منكسرين ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ الذي هم فيه ﴿يَنظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ ضعيف،

يسترقون النظر إليها، فيفزعون، فيحوِّلون بصرهم عنها، ثم يعودون فينظرون من الخوف، ﴿و﴾ هنا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لهم: لقد خسرتم كل شيء، حيث ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ حقيقةً هم: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وأنتم كذلك من الخاسرين الظالمين، ذوقوا إذن عذاب ظلمكم وكفركم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿وَ﴾ عندها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: ليس لهم ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ محبين ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ ويدافعون عنهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي أمر بعذابهم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ للنجاة من عذاب الله.

وبعد أن وعد ربنا وأوعد بيَّن المقصود، وطالبَ به قائلًا:

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ في كل ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة، حيث ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يدفع عنكم عذابه أحد، وكذلك ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مهرب تهربون إليه من هذا العذاب يومئذ، ﴿و﴾ كذلك ﴿مَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: لا تستطيعون إنكار شيء مما فعلتموه.

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى للبشير النذير ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ يا محمد عن الاستجابة لِمَا دعوتهم إليه، طاعة لله، فلا عليك، ولا تحزن ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ تحفظ أعمالهم، وتوفِّق سلوكهم، وتلزمهم بما طالبتهم به ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ للرسالة إليهم فقط، واعلم أن نِعَم الدنيا التي شغلتهم وصرفتهم عن الإيمان بالنسبة لِمَا أعدَّه الله لعباده الصالحين في جنات النعيم

كالقطرة بالنسبة إلىٰ البحر، ولذلك سُمِّيَت نعم الدنيا ذوقًا، فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة كالغنىٰ والصحة وخلافه، ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وطغىٰ بسببها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من: فقر، أو مرض، وخلافه، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ واكتسبته من المعاصي ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ ينسىٰ النعمة، ويذكر النقمة، ويكفر في الرخاء وفي البلاء، إلَّا إذا قاوم طبعه، وهذَّب نفسه، وأدَّبها بشرع الله.

وينبغي أن لا تغره النعمة فكل النعم من الله، وكل الكون ملك لله، فعلىٰ العاقل أن يجعلها وسائل لطاعة الله، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

نعم، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهن، ومن فيهن، وهو سبحانه المتصرِّف، وهو المعطي وهو المانع، فينبغي أن لا يغترَّ الإنسان بما يصل إليه، حيث إنه من الله ومِن ملك الله، ومن عطاء الله، وهو سبحانه الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ في هذا الكون كله.

ثم ذكر من أحوال تصرُّف الخالق في ملكه: أنه يخص البعض من الناس بالإناث، والبعض بالذكور، والبعض بالذكور والإناث معًا، والبعض يجعله محرومًا من الكل، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده بحكمته ﴿إِنَـٰثًا﴾ هبة منه تعالىٰ، وإنعامًا علىٰ عبده، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ منهم الأولاد ﴿ٱلذُّكُورَ﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ يعني يهبه من الصنفين ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم ﴿عَقِيمًا﴾ لا يولد له، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذا أو ذاك ﴿قَدِيرٌ﴾ علىٰ ما يشاء، لا رادَّ لإرادته، ولا معقِّب لحكمه، ولا شيء فوق حكمته.

وبعد أن بيَّن المولىٰ كمال علمه، وقدرته، وحكمته أَتبعه ببيان إنعامه علىٰ أنبيائه بوحيه وكلامه، فقال الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صح ﴿لِبَشَرٍ﴾ أبدًا ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿إِلَّا﴾ على أحد ثلاثة أوجه:

الأول: ﴿وَحْيًا﴾ أي: إلهامًا؛ وقذفًا في القلب، كما أوحى الله إلى أم موسى عليه السلام، أو منامًا كما أوحى إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده.

الثاني: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمع كلام ربه، دون أن يبصر شيئًا، كما حدث مع موسى عليه السلام عند طور سيناء.

الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ هذا المَلَك إلى النبي أو الرسول ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بأمر الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ الله من الوحي، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه.

ولمَّا بيّن الله عز وجل على هذا النحو أقسام الوحي قال لحبيبه ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل الوحي الذي أوحيناه إلى الرسل من قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ وهو القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ وتعرف قبل هذا الوحي بالقرآن إليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا﴾ تدري ما ﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أيضًا، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن بوحينا لك إياه ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ الذين سبق علم الله فيهم أنهم يستحقون الهداية، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ لتدعو ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو صِرَاطُ ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وهذا الصراط المستقيم، الذي هو

الإسلام هو من الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومَن فيهما، وما بينهما، خَلْقًا وملكًا وتصرُّفًا، ﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا وآمنوا، إنه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وترجع إليه كلها، فيفصل في شأنها، وُيُعذِّب العاصي، وُيثيب المطيع.

وبهذا، وعلىٰ هذا النحو: عالجت السورة قضية الوحي منذ النبوات الأولىٰ لتقرر:

وحدة الرسالة، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق، ولتعلن:

القيادة الجديدة للبشرية ممثَّلة في رسالة محمد ﷺ، وفي الجماعة المؤمنة بهذه الرسالة، ولتكمل إلىٰ هذه الجماعة المؤمنة أمانة القيادة إلىٰ الصراط المستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولتبيِّن:

خصائص هذه الجماعة المؤمنة، وطابعها المميز الذي تصلح به للقيادة، وتحمل به هذه الأمانة التي تنزَّلت من السماء إلىٰ الأرض عن ذلك الطريق العظيم العجيب، وهو الوحي.

جعلنا الله وإياكم وجميع المسلمين من أهل طاعته، ورضوانه.. اللهم آمين.

* * *

openkandil.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

وهي سورة مكية، تعرض جانبًا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالج آثار هذه المصاعب في النفوس المؤمنة، وتقرر: حقائق الإسلام وقيمه مكان الخرافات التي كانت راسخة في العقول إذ ذاك، والتي ما يزال الكثير منها باق في بعض العقول إلىٰ اليوم.

وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

يقسم الله تعالىٰ بـ: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الذي هو القرآن، المبين الواضح، الذي نزل بلغة القوم الذين أُرسل خاتم الأنبياء منهم.

وجواب القسم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، فصيحًا بليغًا.

ولكن لماذا هذا القسم والتأكيد؟ حتىٰ يهتمُّون به، ويُقبلِون عليه، ويفهمون ما فيه، ويعملون بشرعه وتعاليمه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

ثم بيَّن شأن هذا الكتاب، وعلوَّ منزلته، فقال جل شأنه:

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم موجود، ومحفوظ ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

وقد وصف الله تبارك وتعالىٰ اللوح المحفوظ بهذين الوصفين، وهما:

الأول: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل جميع الكتب.

الثاني: ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا.

ثم وصف ربنا تبارك وتعالىٰ القرآن بوصفين كذلك وهما:

الأول: ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: عالٍ عن وجوه الفساد والبطلان، كما أنه عالٍ علىٰ جميع الكتب؛ بسبب أنه هو المعجزة، وأنه باق إلىٰ يوم القيامة.

الثاني: ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم في أبواب البلاغة والفصاحة، ومنافع العباد، في الدنيا والآخرة.

وبعد أن بيَّن المولىٰ شرف القرآن في الملأ الأعلى؛ لينبِّه بذلك أهل الأرض علىٰ عُلُوِّ منزلته قال تعالىٰ:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

يعني ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ إنزال ﴿ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وهو القرآن إعراضًا عنكم؛ لأنكم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في الجهالة والعناد والتكذيب؟

إنه: من لطفنا لم نفعل ذلك بل أنزلناه، ودعانا المولىٰ إلىٰ الإيمان به، ليهتدي من قدَّر الله له الهداية، وتقوم الحجة علىٰ مَن كتب الله عليه الشقاوة.

ثم خفَّف الله علىٰ نبيه من آلام تكذيبهم له، وصبَّره علىٰ تحمُّل أذاهم بقوله عز وجل:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿وَكَمْ﴾ وكثيرًا مَّا ﴿أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السابقين، كما أرسلناك إلىٰ هؤلاء، تدعوهم إلىٰ التوحيد وعبادة الله.

﴿وَ﴾ العجيب أن هؤلاء الأولين ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله كما تدعو أنت هؤلاء ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ويكذِّبون، كما يستهزئ بك ويكذبك هؤلاء، فماذا فعلنا بالمكذبين السابقين..؟ ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ السابقين، وهم أَشَدُّ ﴿مِنْهُم﴾ أي: من قومك ﴿بَطْشًا﴾ وقوة، ﴿وَ﴾ قد ﴿مَضَىٰ﴾ وسبق في هذا

الكتاب ذكر الكثير من مَثَلِ هؤلاء ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ المكذِّبين، وألوان عذابهم وإهلاكهم.

وتبدأ آيات السورة الكريمة في مناقشة عقائد مكذِّبي هذه الأمَّة، وتقيم الحجة عليهم، وتكشف العلل الحقيقية لمواقفهم الخاطئة، وتهدمها.

وهذا موقف من مواقفهم في عقيدتهم الفاسدة، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني هم مُقِرُّون بأن خالق السمٰوات والأرض هو الله، ومع ذلك فهم لا يوحِّدونه، بل يعبدون معه غيره، كما أنَّهم لا يُقِرُّون بقدرته علىٰ البعث.

ويرد الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق ذكر أوصافه التي يعرفونها، فيقول تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

وهذه الأوصاف المذكورة للمولىٰ عز وجل في هذه الآيات هي:

الصفة الأولىٰ: أنه خالق السمٰوات والأرض، وأنتم مُقِرُّون بذلك.

الصفة الثانية: أنه هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ [الزخرف: ٩] الغالب، الذي له كمال القدرة.

الصفة الثالثة: أنه هو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] المحيط علمه بكل شيء، فله إذًا كمال العلم.

الصفة الرابعة: أنه هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ليتم الانتفاع بها.

الصفة الخامسة: أنه هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ليسهِّل لكم التنقُّل بين أرجائها لتحقيق مصالحكم.

الصفة السادسة: أنه هو ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ وهذا الماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ يقدِّره الله تعالىٰ وفْقَ حكمته، وهذا المقدار الذي ينزل ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أحيينا ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالنبات بعد أن كانت ميتةً وخاليةً منه، وبهذا

الإحياء تستدلون على أنكم ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من القبور، وتبعثون أحياءً يوم البعث من بزرة في عَجْبِ الذَّنَب.

الصفة السابعة: أنه هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ وكل ما سِوىٰ الله، خلقه الله سبحانه وتعالىٰ.

الصفة الثامنة: أنه هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ عليه، و ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾ بقدرته وإنعامه ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ بألسنتكم وقلوبكم؛ شكرًا لربكم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيعين ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ صائرون.

وهذا **موقف آخر** من مواقفهم في عقيدتهم الفاسدة، يقول رب العزة:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

يعني هم قد ﴿جَعَلُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءًا له سبحانه، وبعضًا منه، كما يكون الولد جزءًا لوالده.

وَيرُدُّ الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق طبيعة الإنسان، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ واضح الجحود والنكران للنعمة؛ حيث نسب لله الولد.

ثم يفصِّل في هذا الرد، فيقول مستهزءًا بهم:

﴿أَمِ﴾ بل يدَّعون أنه سبحانه ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، أهذا يعقل؟ أنه اتخذ لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ وخصَّكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾.

فقد أعطوا الله الأقل في نظرهم، حيث إنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ بالأنثىٰ وُلِدتْ له

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ويتوارىٰ من القوم خجلًا من سوء ما بُشِّرَ به، أهذا يعقل؟

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ هل مَن يتربىٰ في الزينة ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وهنَّ البنات، كالرجال فيما يرون؟ أنهم جمعوا أنواعًا من الكفر، كفر طبيعتهم وكفر نِسبتهم الولد إلىٰ الله، وكفر جعلِهم ما لله في المقام الأدنىٰ، حيث أعطوه ما يعتبرونه الأقل، وكفر جعلِهم أنفسهم في المقام الأعلىٰ، حيث جعلوا لأنفسهم ما يعتبرونه الأفضل، وكفر جعلِهم الملائكة: بنات الله.

وهذا **موقف ثالث**: من مواقف عقيدتهم الفاسدة، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يعني هم ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ قالوا: (الملائكة بنات الله).

ويردُّ الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم علمهم بالغيب، فيقول مستنكرًا مستهزءًا: ﴿أَ﴾ هم ﴿شَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ حتىٰ يكونوا قد عرفوا المشاهدة أنهم إناث؟ أبدًا لم يشاهدوا خلقهم؛ لأنَّ ذلك من عالم الغيب الذي لا يعرفه، ولا يَطَّلع عليه إلَّا الله، علىٰ أية حال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ هذه أنَّ الملائكة إناث، في صحائف أعمالهم، وديوان سيئاتهم، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة سؤال حساب وعذاب.

وهذا **موقف رابع**: من مواقف عقيدتهم الفاسدة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني هم عبدوا الملائكة، وتعلَّلوا بمشيئة الله ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ **أن نترك** عبادتهم ﴿مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ﴾ ولكنه شاء ذلك، ولا رادَّ لمشيئته.

ويردُّ الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم معرفتهم قبل عبادتهم أنَّ هذه بمشيئة الله، وأنَّ ذلك محض اختيارهم وانحرافهم، إذ يقول سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بهذه المشيئة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ حتىٰ يتعلَّلوا بها في انحرافهم، ولكنَّ الحقيقة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتقوَّلون علىٰ الله تعالىٰ ويكذبون.

﴿أَمْ﴾ هل ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ فيه بيان مشيئة الله ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل كفرهم هذا، وعبادتهم للملائكة ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ أي: بهذا الكتاب، وهذا العلم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وملتزمون؟ كلا، لم نؤتهم كتابًا بذلك، ولا علم لهم.

﴿بَلْ﴾ الحقيقة: أنهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ علىٰ دين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ بهم، فيما نفعل، وفيما نعبد.

هؤلاء: قومك يا محمد!! وهذه: هي عقائدهم الفاسدة!! وهذا: تقليدهم لآبائهم في العناد والتكذيب، فلا تحزن، ولا تغتم:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الحال ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهم كثير، كما أرسلناك إلىٰ أهل مكة تبدأ بهم دعوتك ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: المترفون في قرىٰ الأنبياء هذه، كما قال قومك: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ دين ﴿وَإِنَّا﴾ سنظل ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: علىٰ ما كانوا عليه ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ بهم فيه.

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم نبيُّهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ من الدين والشرع ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ لكم ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ من عقيدة فاسدة أتتبعونني؟ ﴿قَالُوٓا۟﴾ له في تبجُّح وعناد ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ كلُّكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لا نؤمن به و لا نتبعكم.

فماذا كانت النتيجة لهذا التكذيب والعناد؟

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ﴾ لتكذيبهم وعنادهم، حيث أهلكناهم:

﴿... فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ واعتبر حتىٰ لا تكون مثل هؤلاء الهالكين.

ولأن التقليد أمر فاسد، ويؤدي إلىٰ الهلاك يجب التحرُّر منه، والبعد عنه؛ ليكون الإنسان حرًّا في فكره، مستخدمًا لعقله، مستفيدًا بآيات ربه، ودلائل هدايته.

وهذا هو نموذج واقعي حي لهذا الإنسان المتحرِّر من التقليد، المعتمد علىٰ البرهان والدليل، وكما في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَ﴾ اذكر للمقلدين ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الذين كانوا يعبدون الأصنام تقليدًا ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريء ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام، ﴿إِلَّا﴾ أنني أعبد الله ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وحده سبحانه ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وحده هو الذي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلىٰ كل خير، ويثبِّتني عليه.

﴿وَ﴾ قد ﴿جَعَلَهَا﴾ الله عز وجل أي: كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: ذرية إبراهيم، يعملون بها، ويدعون لها ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ مَن شُرِّدَ منهم عنها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إليها.

وكان المفروض أن يعود إليها هؤلاء المكذبون، الذين هم من ذرية إبراهيم، ولكنهم بَعُدَ بهم العهد، وكَثُرَتْ عندهم النِّعمَ وقد اغترُّوا بالنعمة، ونسوا المُنْعِم، وعادوا إلىٰ التقليد.

يقول الله تعالىٰ للنبي ﷺ:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿بَلْ﴾ أكثر من جعل كلمة التوحيد باقية فيهم ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بطول العمر، وكثرة النِّعمَ ليعرفوا ربهم، ويوحِّدوه، ويعبدوه ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مظهرًا لهم الأحكام والتعاليم والتشريعات النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿وَ﴾ لكنهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمُ﴾ الحق مع رسول مبين ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ سَحَرنا به محمد ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مهما فعل، ومهما دعا ووضح.

وأضافوا إلىٰ مواقفهم السابقة، وأقوالهم الفاسدة موقفًا كله حقد وعناد، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَقَالُوا۟﴾ معترضين علىٰ الله عز وجل ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ غير محمد ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ بدلًا من هذا اليتيم. وهذا عناد، وتكذيب، وتعليل لكفرهم، والعجيب: أنها ـ تقريبًا ـ حجة المعاندين لأصحاب الدعوات نفسها.

وقد رَدَّ الله عليهم اعتراضهم هذا بقوله عز وجل:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

عجيب أمر هؤلاء الناس المعترضين..!!

﴿أَهُمْ﴾ الذين ﴿يَقْسِمُونَ﴾ ويوزِّعون ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وهي النُّبوَّة، أبدًا لا.

يجب أن يعلموا جيدًا أننا نحن الذين جعلنا النبوة في أزكىٰ الخَلْق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا، وأننا ﴿نَحْنُ﴾ الذين ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ وأرزاقهم، التي

يغترُّون بها، ويترفَّعون علىٰ نبينا ﷺ، ويعاندونه، ويكذِّبونه، ويكفرون بدعوته، ﴿وَ﴾ أننا نحن الذين ﴿رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ بالغِنىٰ والصحة والجاه ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. وذلك ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يسخره ويستأجره في العمل لديه؛ حتىٰ تتم الأعمال، وتسير أمور الحياة، ﴿وَ﴾ أننا الذين جعلنا رَحْمَةَ ﴿رَبِّكَ﴾ وهي النُّبوَّة، والدين الذي يدعو إليه هذا النبي، وما يوصل إليه من الجنة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، ويغترُّوا به، ويترفَّعوا ويعاندوا ويكفروا بسببه.

إنهم لو علموا ذلك!! ما قالوا ما قالوه، ولا وقفوا من النبي ﷺ هذا الموقف الذي وقفوه.

هذه الدنيا التي غرتهم، وهذا الحطام الذي بهرهم، وجعلهم يعاندون تافه في نفسه، حقير عند الله، لذلك: يقول المولى سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في الكفر، بسبب فَهْم خاطئ، وهو أن عطاءنا النِّعَم للكافرين دليل علىٰ محبتنا لهم ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد أيضًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون.

﴿وَ﴾ لجعلنا كذلك ﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، من فضة كذلك ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ ويجلسون.

﴿وَ﴾ كل ذلك ﴿زُخْرُفًا﴾ زينة من زينة الحياة الدنيا.

وقد دلَّت الآية علىٰ أن مِمَّا يفتن بعض المسلمين عن دينهم ـ والعياذ بالله ـ رؤيتهم للكافرين في النعيم، والرخاء الاقتصادي؛ بما يؤدي بهم إلىٰ الظنِّ بأنَّ الإسلام سبب التأخُّر، وَأَنَّ الارتماء في أحضان هؤلاء الكفار وأنظمتهم طريق للغنى والتقدم.

لذلك يَردَّ الله عليهم هذا الفهم الخاطئ، صيانة لهم عنه، وعن مضاره، فيقول: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي تراه أيها المؤمن ﴿لَمَّا﴾ ما هو إلَّا ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائلة الفانية، ولا قيمة له مع الكفر، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: وأمَّا الآخرة وثوابها، فهو ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يدَّخِره ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لهم فقط، لا يشاركهم فيه أحد.

هذه تنبيهاتنا، وهذه وصايانا، وهذا ذِكْرنا وتذكيرنا. ثم يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ يتعامى ويتغافل ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن ﴿نُقَيِّضْ﴾ نضم ﴿لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ ونسلطه عليه ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ دائم الصحبة، يحمله في الدنيا علىٰ المعاصي، ويدخل معه النار يوم القيامة، ما دام بعيدًا عن ذكر الله.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: قرناءهم من الإنس ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الهدىٰ، ﴿وَ﴾ الغريب أنهم أي الإنس المتغافلون ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ وهم في ضلالهم هذا ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ مثل باقي الناس، بل قد يظنون أنهم أهدىٰ من كثير من الناس!!

ويظل الحال هكذا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ هذا الغافل يوم القيامة، وعرف ضلال ما كان فيه، وسوء ما كان يفعله، وفساد ما كان يعتقده، التفت إلىٰ قرينه الذي حمله علىٰ المعاصي في الدنيا، و ﴿قَالَ﴾ له متحسرًا ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ كان في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، ثم قال له ما أسوأك ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت.

وهنا يقول ربنا عز وجل لهؤلاء العصاة الغافلين المتغافلين في الدنيا عن ذكر الرحمٰن: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ندمكم، ولا تحسُّركم علىٰ كفركم وظلمكم ﴿إِذ

﴿ظَلَمْتُمْ﴾، على أية حال: اعلموا ﴿أَنَّكُمْ﴾ وقُرناءكم ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، وهذه نهاية أصدقاء السوء في الدنيا والآخرة.

كان الكفار كلما دعاهم النبي ﷺ للإيمان ازدادوا عنادًا وكفرًا، لذلك وصفهم الله بعد العَشي في عيونهم، والتغافل في قلوبهم بالصمم والعمى، حيث قال مهدِّئًا لحبيبه ﷺ، ومخففًا عنه ألمه لكفرهم:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ رغمًا عنهم ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الذين لا بصيرة عندهم، ﴿وَ﴾ كل ﴿مَن كَانَ﴾ هكذا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح تهديه إلى الإيمان، لا.

لذلك: لا تتألم لعدم إيمانهم وسوف نعذبهم ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وتموت، قبل تعذيبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ في الآخرة، وسترى هذا.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ به من العذاب، وفي الحالين ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ وعلى عذابهم ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾.

وبعد هذه التهدئة، يأمره ربه بما يأتي قائلًا:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

تفيد هذه الآيات الكريمة أن الله أمر حبيبه بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾ وهو القرآن، واجعله منهاج حياتك وحياة أمَّتك، ولا تهمل فيه، ولا تستبدل به غيره، حيث ﴿إِنَّكَ﴾ به ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على الحق الواضح والطريق المستقيم.

الثاني: حافظوا عليه، واعملوا به، وأحِلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، ولا تفرطوا فيه،

ولا تبتعدوا عنه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ شرف وسبب رفعة وعُلُوُّ قَدْرٍ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لو عملوا به ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن القيام بحقه.

الثالث: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ بالنظر في دعوتهم؛ ليعلم قومك خطأ موقفهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حتىٰ يعلم هؤلاء أنه لا يستحق التوحيد، والإخلاص، والعبادة إلَّا الله وحده،فيؤمنون، ويوحِّدون، ويعبدون!!

وإذا كان الكفار قد اعترضوا علىٰ نُبُوَّة محمد ﷺ بسبب فقره، فإن مَن قبلهم كان فرعون الذي اعترض علىٰ نبوة موسىٰ عليه السلام بسبب فقره، ولذلك: فهو طريقة المعترضين علىٰ الدعوة والدعاة في كل العصور.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ قبل محمد ﷺ نبيًّا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يدعوهم إلىٰ الله ﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكم، فطلبوا منه الآيات الدالة علىٰ صدقه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ معجزاتنا الدالة علىٰ صدقه ونُبُوَّته ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ويستهزؤن بها، وصرنا نريهم الآيات، ليؤمنوا.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من هذه الآيات ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾ ليؤمنوا، ولكنهم لم يؤمنوا، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.. إلخ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم إلىٰ الله، ويؤمنوا.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عندما كنا نسلط عليهم لونًا من هذا العذاب يا موسىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة دعوتك ﴿إِنَّنَا﴾ هذه المرة ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الإيمان.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في كل مرة من هذه المرَّات ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ في عهدهم مع موسىٰ بالإيمان إذا رفع عنهم العذاب.

وكان الدافع إليهم في هذا الكفر هو غناهم، وفقر الداعية، يكشف ذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ مصر، وأعلن ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ نظرته هذه لموسىٰ، الداعي إلىٰ الله، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ انظروا إليّ في غِناي، وإلىٰ موسىٰ في فقره، وفكِّروا وقدِّروا؛ لتعرفوا مَن مِنَّا علىٰ صواب، ﴿أَلَيْسَ لِى﴾ أنا ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ كلها، أرضًا وشعبًا، وخيرات ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: من تحت قصوري أنا.

وهنا: ينبغي أن ندرك أن فرعون انتزع المُلْك من المالك الحقيقي ـ وهو الله تعالىٰ ـ لنفسه. وسكت شعبه.

فسبَّهم قائلًا ﴿أَ﴾ أنتم عمي ﴿فَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الغنىٰ الذي أنا فيه.

وسكت شعبه، فعاب نبي الله علىٰ مرأىٰ ومسمع من الجميع قائلًا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ لغناي ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف لفقره ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ في كلامه.

ثم أكَّد فقر موسىٰ بقوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقًا ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ يصير بها غنيًّا عظيمًا فنصدقه ونتَّبعه؟ كما أكَّد ضعفه ـ كذلك ـ بقوله ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ به يعزِّزون موقفه ويشهدون له؛ فنصدِّقه ونتبعه؟ وسكت ـ أيضًا ـ شعبه.

ولكن لماذا سكت شعبه؟ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

نعم، لأنهم كانوا: خفاف العقول، خفاف الأوزان، لا عقول عندهم يفكِّرون بها، ولا وزن لهم يفكِّر فيه هو، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾، ولأنهم كانوا كذلك ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في كفره وباطله الذي هو عليه، وتكذيب موسىٰ عليه السلام.

ولكن لماذا كانوا خفافًا؟ ولماذا أطاعوه بهذه السهولة؟

المسألة ليست بهذه السرعة وهذه السهولة، لقد أعدَّهم فرعون لهذا الموقف من قبل، لقد أفسدهم وأغرقهم في الشهوات، كما أنه أذلهم بالتعذيب والتخويف حيث: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

لذلك يقول ربنا رَدًّا عليه وعليهم، مبيِّنًا فساد هذه النظرة ـ نظرة الغنىٰ والفقر للدعاة:

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بمواقفهم هذه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وهلكوا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ بذلك ﴿سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ يُعتبر به ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾ حتىٰ لا يفعلوا مثلهم!!

وهذا.. موقف جديد من مواقف المشركين في كفريَّاتهم، وعنادهم، وفساد عقيدتهم، حيث يقول تعالىٰ:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لمَّا نزل قوله تعالىٰ خطابًا للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال واحد منهم لرسول الله ﷺ: أهذا لنا وحدنا أم لكل مَن عُبد من دون الله؟
فقال ﷺ: «**هي لكم، ولآلهتكم، ولكل مَن عُبد من دون الله**».

فقال الكافر: إذا كانت النصارىٰ يعبدون عيسىٰ، وهؤلاء ـ كما تقول ـ في النار، فقد رضينا نحن وآلهتنا أن نكون معهم في النار.

وفهم الكفار أنهم بهذا هزموا النبي ﷺ بهذا الجدال ففرحوا، وارتفعت بالضحك أصواتهم، وهذا هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: من المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يضحكون.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ للنبي ﷺ ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، وقد رد الله عز وجل عليهم **أولًا**: بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ثانيًا: بهذه الآيات التي معنا في هذه السورة، والتي فيها يقول رب العزة للحبيب ﷺ:
﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: المثل ﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾ فقط، وليس بطلب الحق، أو معرفته، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: بل هذه طبيعتهم، وهي الخصومة والعناد.

ثم حدَّثهم القوي القادر عن عيسىٰ عليه السلام **أولاً**، فقال تعالىٰ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: عيسىٰ ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من عبادنا، وليس إلٰهًا، بل هو عبد ﴿أَنْعَمْنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَيْهِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ بخَلقنا له من غير أب ﴿مَثَلًا﴾ واضحًا، ودليلًا بيِّنًا علىٰ عظيم قدرتنا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ نختبر به إيمانهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا﴾ بقدرتنا هذه ﴿مِنكُم﴾ أي: بدلكم أيها المشركون المعاندون ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بعد أن نهلكهم، لفعلنا !! فهل تعتبرون، وتؤمنون؟

ثم يقول تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام **ثانيًا** :

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: نزول عيسىٰ عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ﴾ أمارة ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ ودليل علىٰ قرب وقوعها.

وفي الحديث: «**ينزل عيسىٰ في الأرض المقدسة، وبيده حربة، وبها يقتل الدَّجَّال، ويأتىٰ بيت المقدس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام، فيقدمه عيسىٰ عليه السلام، ويصلي خلفه علىٰ شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارىٰ إلَّا من آمن به**».

وبعد هذا الإخبار عن يوم القيامة يقول تعالىٰ لهم ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ أي: تَشُكُّنَّ ﴿بِهَا﴾ وهي الساعة، وقرب مجيئها.

الثاني: ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: اتبعوا هُداي وشرعي، ومنهجي، فإن شرعي ومنهجي ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى جنات النعيم.

الثالث: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عنه؛ حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ وعن الإيمان بالساعة ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

ثم يقول تبارك وتعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام **ثالثًا**:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يعني ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾ لبني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، والشرائع الواضحات، ﴿قَالَ﴾ لهم مخبرًا بأمرين، ومطالبًا بثلاثة:

الخبر الأول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ من الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ وهي: النُّبوَّة وشرائع الإنجيل.

الخبر الثاني: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمور الدين، وأوضِّح الصواب، وأرشدكم إلىٰ اتباعه.

وأما الأوامر التي طالبهم فيها، فهي:

الأمر الأول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وآمنوا به.

الأمر الثاني: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جئتكم به من شرع الله، ثم بيَّن لهم عبوديته لله، وأمرهم.

بالأمر الثالث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ لذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده، و﴿هَٰذَا﴾ الذي جئتكم به ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فلا تحيدوا عنه.

فماذا فعلوا؟

يقول تعالىٰ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾، لذلك يهدِّدهم ربنا قائلًا: ﴿فَوَيْلٌ﴾ يوم القيامة ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

ولمَّا بيّن القوي العزيز أن نزول عيسىٰ عليه السلام، من علامات الساعة هدَّد الكفار بها فقال تعالىٰ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: لِمَ لا يؤمن هؤلاء الكفار؟ وماذا ينتظرون ليؤمنوا؟ إنهم بموقفهم هذا، وعنادهم هذا ما ﴿يَنظُرُونَ إِلَّا﴾ مجيء ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ وكذلك ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ﴾ في لَهْوِهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بها.

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن بعض أحوال يوم القيامة، فيقول الله جل وعلا:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ أي: الأصحاب والأصدقاء في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الصداقة إذا كانت في الدنيا علىٰ المعصية صارت عداوة يوم القيامة، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانت صحبتهم وصداقاتهم علىٰ طاعة الله، وهم في الدنيا.

ماذا يكون حال هؤلاء المتقين؟ الجواب:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ويقال يوم القيامة للمتقين: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ أُبشِّركم وأُسعِدُكم بهذه الإنعامات:

الأولىٰ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ من أي شيء.

الثانية: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ اليوم علىٰ أي شيء، لأنكم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بتشريعاتنا ﴿وَكَانُوا۟﴾ بها عاملين، ولنا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ولأوامرنا منقادين.

الثالثة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون وتُكرَمون. ويدخلون بالفعل الجنة و﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ فيها ﴿بِصِحَافٍ﴾ أواني ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فيها كل شيء ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته.

الرابعة: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا تخرجون منها، ولا تموتون فيها.

﴿وَتِلْكَ﴾ هي ﴿ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ فضلًا من الله ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من أعمال تبتغون بها رضوان الله وثوابه.

الخامسة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ سوىٰ الطعام والشراب ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وبعد أن يحدثنا ربنا تبارك وتعالىٰ عن نعيم المتقين يعرض علىٰ مسامع الدنيا كلها ـ تحذيرًا منه ـ جزاء الكافرين، فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ جزاء ما كانوا يعملون مما يُغْضِب الله، ويُفْسِد البلاد، ويؤذي العباد.

هذا العذاب الخالد ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يائسون، ساكتون، لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بهذا العذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟﴾ بكفرهم ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَوْا۟﴾ من شدة العذاب ويأسهم من رحمة الله!! قالوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ !!

ألهذا الحد من العذاب يصلون؟ يتمنون الموت، ولكن بماذا يجيبهم مالك؟

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون فيه، لا خروج، ولا موت، بل وعذاب دائم، وهذا ما تستحقون!!

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ نحن الملائكة رسل الله، وأنا واحد منهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وبيَّناه لكم، ووضَّحناه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه، ولا يعملون به، فعودوا على أنفسكم بالندم والملامة، حيث لا يفيد الندم، ولا تنفع الملامة.

وبعد هذا الوعد بالنعيم المقيم للمتقين، والوعيد بالعذاب المقيم للمجرمين!!

ينذر ربنا عز وجل المشركين، فيقول لهم ولأمثالهم حتى يوم القيامة:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أَمْ﴾ هل ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾ وأحكموا ﴿أَمْرًا﴾ في الكيد والإيذاء للدعوة وأهلها؟ ﴿فَإِنَّآ﴾ بقدرتنا ﴿مُبْرِمُونَ﴾ أمر إهلاكهم وتعذيبهم.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويظنون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾، لذلك يخطِّطون ويدبِّرون فنون الكيد والإيذاء، ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمع سرَّهم ونجواهم، ولا يغيب عنَّا من أمورهم شيء، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل شيء في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه ﷺ: أن يرد عليهم أباطيلهم، حيث يقول له: **أولًا**:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ حقًّا ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ كما تزعمون ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، ولكن ليس الأمر كذلك، إذ ليس للرحمٰن ولد.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويقولون مما لا يليق بذاته عز وجل.

ثم يقول له ثانيًا:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ كما يريدون ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب، ولا تأبه لأقوالهم فسيعذبهم الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَهُوَ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيضًا ﴿إِلَٰهٌ﴾ يُعبَد، بل لا يستحق أن يُعبُد سواه، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير هذا الملكوت ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح خلقه.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ سبحانه، وتعاظم، وتنزَّه عمَّا يقوله السّفهاء، فهو ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خلقًا وتصرفًا، ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿عِندَهُۥ﴾ وحده

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقت القيامة، لا يعلمه سواه ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة؛ فيجازي كل أحد بما يستحق، فضلًا أو عدلًا.

﴿وَ﴾ هو الذي ﴿لَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الذين يعبدهم المشركون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيره سبحانه ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لهم عند العذاب، كما كانوا يزعمون ويقولون في الدنيا، إذًا لا يملك الشفاعة عند الله يوم القيامة ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: كلمة التوحيد، وآمن، وأطاع الله، واتبع الرسل ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله ربهم حقًّا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ قائلًا لهم: ﴿مَّنْ﴾ الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾؟ سيجيبونك قائلين: خلقهم ﴿ٱللَّهُ﴾، ومع ذلك يعبدون غيره..!!

﴿فَأَنَّىٰ﴾ وكيف مع هذا الإقرار بأن الله هو الخالق كانوا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يُصرفون عن التوحيد وعبادة الله؟

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أي: وقال الرسول ﷺ شاكيًا ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ﴾ معاندون ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن.

قال رب العزة له: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، واترك دعوتهم، ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ ولا تخاطبهم بسوء كما يخاطبونك، بل ادفع بالتي هي أحسن، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ويرون عذابنا في الدنيا وفي الآخرة، وهذا تهديد من الله تعالىٰ، لكل الكافرين، وبشارة للمؤمنين أن تعلو كلمتهم، وأن ينتشر دينهم.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

سورة مكية، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾

هذا قسم وجوابه، حيث يقسم الله تعالىٰ بـ: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهو القرآن الواضح، الموضِّح أنه سبحانه أنزله في ليلة مباركة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر، ثم يقول عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ به ﴿مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس به، وفيه ما ينفع الناس، وما يضرهم؛ لتقوم عليهم الحجة.

ثم زاد ربنا تبارك وتعالىٰ بيانه لهذه الليلة، فقال عز وجل:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

أي: في هذه الليلة المباركة، وهي ليلة القدر ﴿يُفْرَقُ﴾ يُفصل ويُحدد ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ من أحوال الكون والعباد ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم.

ثم زاد ربنا تبارك وتعالىٰ تعظيمه لهذا الأمر، فقال جل وعلا:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

أي: هذا الأمر العظيم، الذي يفرق في هذه الليلة ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل بالكتب ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم.

obeikandl.com

ثم زاد ربنا تبارك وتعالىٰ وصفه لنفسه؛ تعليمًا لنا فقال:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي: جاءت الرسل بالكتب ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٦] ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ﴾ الخالق لكل شيء، المالك لكل شيء، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ مصدِّقين بذلك فآمنوا به.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ سبحانه وتعالىٰ هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لا يترككم دون إرشاد وهداية.

فهل آمنوا، واهتدوا؟ كلا:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: جاءهم الحق، وقامت أمامهم أدلة البعث، ولكنهم ﴿فِى شَكٍّ﴾ من كل ذلك وهم لاهون ﴿يَلْعَبُونَ﴾ استهزاءً بهذا الحق، وبمحمد ﷺ الذي جاء لهم بهذا الحق.

لذلك: يهددهم المولىٰ وينذرهم، بقوله سبحانه:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر أيها المؤمن ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ واضح ظاهر عام، وهو علامة من علامات الساعة.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ﴾ يعم الناس جميعًا، فيصاب المؤمن منه بما يشبه الزكام، ويصير الكافر منه كالسكران، يدخل جوفه، ويخرج من كل منافذ بدنه، وهنا: يقول الكافرون ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم يقولون أيضًا:

﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ﴾ وخفف وارفع ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إذا رفعته عنا.

فيكون الجواب:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كيف يفون بهذا الوعد ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ بالحق ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ واضح في عرضه عليهم، واضح في دعوته إليهم.

﴿ثُمَّ﴾ لم يجيبوه بل ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا ﴿عَنْهُ وَقَالُوا۟﴾ عنه إنه ﴿مُعَلَّمٌ﴾ من جهة البشر، وليس رسولًا، ولكنه ﴿مَّجْنُونٌ﴾.

على أية حال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ﴾ أي: لو كشفنا عنكم العَذابَ زمانًا قليلًا ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ لا محالة إلى الكفر.

انتظروا العذاب الحقيقي الأليم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في يوم القيامة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منكم؛ لكفركم، وعنادكم.

ولمَّا بيّن ربنا عز وجل إصرار كفار هذا العصر على الكفر، بيَّن أن أكثر المتقدمين كانوا كذلك أيضًا، ومن هؤلاء المتقدمين: قوم فرعون.

يقول عنهم القوي العزيز:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ اختبرنا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل كفار هذا العصر ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أهل مصر القدماء.

﴿و﴾ ذلك أن ﴿جَآءَهُمْ﴾ مرسل من عندنا ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ شريف، وهو موسى عليه السلام، يدعوهم للإيمان .**فقال لهم:**

أولًا: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ سلِّموا لي وأرسلوا معي بني إسرائيل، وخلِّصوهم من هذا العذاب المهين.

ثانيًا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله الذي خلقكم ﴿أَمِينٌ﴾ في رسالتي إليكم، ودعوتي إياكم.

ثالثًا: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فتتكبَّروا على دعوته، وتتمنَّعوا عن شريعته، وتحاربوا رسله.

رابعًا: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ لأثبت لكم صدقي ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة على صحَّة رسالتي.

خامسًا: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ واحتميت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ من ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ بالحجارة، وتقتلوني، بسبب هذه الدعوة.

سادسًا: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي﴾ فلا ألزمكم، ولكن لا تتعرضوا لي بالأذى ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ اتركوني وشأني، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

ومع هذه الدعوة القوية، والطلبات الواضحة التي عرضها موسى عليه السلام لم يؤمنوا به، ولم ينفِّذوا منها شيئًا، بل حاربوه، وآذوه، لذلك: دعا عليهم.

يقول المولى سبحانه:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لا تنفع فيهم نصيحة، ولا يستجيبون لدعوة، ولا يفون بعهد، وإني أريد الخلاص منهم، والنجاة من شرهم.

واستجاب الله دعاءه!! وأوحى إليه قائلًا:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَأَسْرِ﴾ أي: سر بعبادي، واخرج بهم من مصر ﴿لَيْلًا﴾ لأن فرعون لن يتركهم لك كما طلبت، بل إذا خرجت بهم ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ منهم، يعني: سيتعقبونكم، ويخرجون وراءكم لإعادتكم.

لذلك: إذا وصلت بهم إلى البَحْرِ فادخل فيه، ومعك قومك، واتركه ﴿رَهْوًا﴾

مفتوحًا، كما هو حسب ما صنعنا ذلك، ليدخلوا فيه خلفك، حيث ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغۡرَقُونَ﴾ فيه بقدرتنا.

وفعل موسىٰ عليه السلام، ونجا، وهلك فرعون الطاغية، وهلك جنده الذين أطاعوه في الباطل، وساعدوه عليه، يقول تعالىٰ عن هؤلاء الهالكين:

﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾

يعني ترك هؤلاء الهالكون هذه الأشياء الخمسة: الجنات وهي البساتين، وعيون الماء، والزروع الكثيرة، والمقام الكريم، أي: الإقامة الحسنة الهادئة، والنعمة السابغة التي كانوا يرفلون فيها، ويتفكهون بها، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ شأن المكذبين المجرمين في كل العصور ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ أي: هذه النعم ﴿قَوۡمًا﴾ غيرهم ﴿ءَاخَرِينَ﴾، وضاع كل شيء من هؤلاء المجرمين، بل ضاع هؤلاء المجرمون أنفسهم، ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ولا مُن فيهما، بل فرح الجميع بهلاكهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي: ممن يتأخر عنهم العذاب، أملًا في صلاح حالهم.

ثم يقول سبحانه وتعالىٰ عن الناجين من ظلم فرعون:

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞا مُّبِينٌ ٣٣﴾

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا﴾ بقدرتنا ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ الذي كانوا يعانونه ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ وقومه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: فرعون ﴿كَانَ عَالِيٗا﴾ متكبِّرًا متجبِّرًا ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في كبره وجبروته، وظلمه للآخرين.

﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بني إسرائيل لحمل رسالتنا بعد أن نجيناهم ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ منا بما سيؤول إليه أمرهم، وميزناهم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المعاصرين لهم، من الأمم

الأخرىٰ، والطوائف المتعددة من البشر، لتكون في أيديهم كل وسائل النجاح في حمل الرسالة، وأداء الأمانة.

﴿و﴾ كذلك ﴿ءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدق نبيهم ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟﴾ لهم، واختبار لإيمانهم، وتمسكهم برسالتهم، ودوام شكرهم لربهم ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح، لننظر كيف يعملون، ولكنهم عاندوا، وكفروا، وفشلوا في حمل الأمانة، وأداء الرسالة.

ثم يعود الكلام إلىٰ كفار هذا العصر، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين كفروا بالقرآن، وأنكروا دعوة محمد ﷺ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ أيضًا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ فقط، ولا حياة بعدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، مرة أخرىٰ بعد الموت.

وإذا أردتم أن نؤمن بالبعث ﴿فَأْتُوا۟﴾ لنا الآن ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الذين ماتوا من قبل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون من قضية البعث والحساب والجزاء!!

ويرد الله عليهم كلامهم الباطل هذا، مهددًا لهم، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿هُمْ خَيْرٌ﴾ في العز الدنيوي ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الذين كانوا باليمن ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من الأمم الأخرىٰ ذات البأس، والعز الذي لا مثيل له..!!

طبعًا قوم تبع والذين من قبلهم كانوا أكثر منهم في متاع الدنيا وعزها.

ومع ذلك لمَّا لم يؤمنوا ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وخرَّبنا بلادهم، وفرَّقناهم شَذرَ مَذر.

حيث ﴿إِنَّهُمْ﴾ لطغيانهم، وعدم إيمانهم ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ وهذا تعليل لإهلاكهم.

ألا تخافون يا كفار هذا العصر من أن تكون نهايتكم كنهايتهم..؟

وبعد هذا الإنذار والتهديد يقيم الله الحجة عليهم، فيقول الحق جل جلاله:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: لو لم يكن هناك بعث، كما يقول الكافرون، لكان خلق هذا الكون عبثًا، ودون غاية، ﴿و﴾ لكن ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ بهذا الخلق.

إننا ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا الحق، ولذلك لا يؤمنون، وينكرون البعث والحساب والجزاء.

وبما أن هناك بعث، وقد ثبت ذلك بوضوح، فإن الله عز وجل يكشف عن بعض غوامض هذا اليوم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بيّن الخلائق جميعًا مؤمنهم وكافرهم، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفع أحدٌ أحدًا، حتىٰ ولا القريب قريبه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

﴿وَلَا هُمْ﴾ في هذا اليوم ﴿يُنصَرُونَ﴾ من أحد يدافع عنهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ فهذا من شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض عند ربنا سبحانه وتعالىٰ برحمته وغفرانه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ عز وجل ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وينقسم الناس في هذا اليوم إلىٰ فريقين: فريق العصاة، وفريق الطائعين،ويحدثنا رب لعزة عن فريق العصاة وعذابهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

اللهم نجنا من هذا العذاب الأليم برحمة منك يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ التي ينبتها الله في قاع الجحيم، وهي من أخبث الشجر المر ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ الآثم في قوله وفعله وهو الكافر، تكون حين يجوع ويأكل منها ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ مثل عكارة الزيت الذي ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ الكافرة ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الشديد الحرارة.

ويقول تعالىٰ لزبانية الجحيم: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ سوقوه بعنف واسحبوه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ﴾ وسط ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتىٰ تنزل من كعبيه، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

ثم يقال له تهكمًا به: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب ﴿إِنَّكَ﴾ كنت تقول ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فلست الآن لا بعزيز ولا بكريم.

ذق ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب هو ﴿مَا كُنتُم﴾ يا فريق الكفار ﴿بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون في حدوثه، وتكفرون به.

ثم يحدثنا رب العزة عن فريق الطائعين ونعيمهم، فيقول المولىٰ سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

اللهم أنعم علينا بكرمك وغفرانك وجودك يا رب العالمين، واجعلنا من هؤلاء المتقين برحمة منك يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

نعم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ في الجنة، أَمِنوا فيه من الخروج منها، أو الموت فيها، كما أمنوا الهموم والغموم بكل أنواعها.

وهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي حدائق وبساتين، وعيون جارية.

وهم ﴿يَلْبَسُونَ مِن﴾ حرير ﴿سُندُسٍ﴾ وهو الرقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو السميك، وهم يجلسون ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ مع بعضهم البعض؛ زيادة في الأنس والنعيم.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ أيضًا ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي بالحور الحسان في الجنان.

وهم ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يطلبون في الجنة ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ ومتعة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من انتهائها، أو زوالها.

وهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل حياة أبدية، ونعيم أبدي، وليس لهم - بذلك - ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي خرجوا بها من الدنيا.

﴿و﴾ قد ﴿وَقَىٰهُمْ﴾ الله ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهذه نعم في حد ذاتها.

كل ذلك ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ عليهم، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ حقيقةً ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت به، وهو الحديث عن القرآن الكريم، فيقول تعالىٰ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآن لهم ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الذي هو لسانهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيتعظون، فيؤمنون.

وإذا لم يؤمنوا ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر ما ينزل بهم من العذاب ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ موتك، ليستريحوا منك، وسيعلمون لمن تكون النصرة، والغلبة في النهاية!!

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

وهي: سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ من الحروف العربية المقطعة، التي قصد بها القرآن لفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم، ليستمعوا إليه فتصلهم الرسالة، وتلزمهم الحجة.

﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ العظيم، وهو القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالبه أحد، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره، وأقواله، وأفعاله، سبحانه وتعالىٰ.

فهلَّا آمنوا به، وعملوا بتشريعاته؟!!

ثم يسوق ربنا عز وجل دلائل علىٰ عزته، وقدرته، وحكمته، التي لو عرفها، واعتبر بها كل عاقل: لآمن بالله سبحانه وتعالىٰ، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ تدل علىٰ وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ آيات تدل علىٰ وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته ﴿و﴾ في ﴿ما

﴿يَبُثُّ﴾ يخلق وينشر في الكون ﴿مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ تدل علىٰ: وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

﴿و﴾ في ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ آيات تدل علىٰ: وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

﴿و﴾ في ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ مطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ آيات تدل علىٰ وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

﴿و﴾ في ﴿تَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ آيات تدل علىٰ: وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

وهذه الآيات: يستفيد بها، ويعتبر بمدلولاتها، الذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿يُوقِنُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾.

يقول المولىٰ عز وجل:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ العظيمة المنظورة في الأنفس والآفاق، والمسطورة في القرآن الكريم ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ لتتلوها، وتبلغها للناس، ما لهم لا يؤمنون بها؟ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ﴾ إذًا ﴿بَعْدَ﴾ حديث ﴿ٱللَّهِ﴾ هذا ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَيْلٌ﴾ هلاك ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ مبالغ في كذبه.

إنه ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ليؤمن بها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ لا يؤمن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ﴾ نهائيًا، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في جهنم يوم القيامة.

﴿و﴾ العجيب أنه ﴿إِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ بلغه ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وسخر منها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينه، لأنه كان مستكبرًا.

هؤلاء وأمثالهم ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ أي: قدامهم وفي انتظارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ يعذبون فيها، لا يخرجون منها، ولا يموتون، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم﴾ ويدفع ويمنع عنهم هذا العذاب، ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا ﴿شَيْـًٔا﴾ من مال، أو جاه، أو.. إلخ، ﴿وَلَا﴾ يغني عنهم كذلك ﴿مَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ في الدنيا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ عبدوهم، ودانوا لهم بالطاعة، ﴿و﴾ لذلك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في شدته، وقسوته عليهم.

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿هُدًى﴾ لكل خير، وكل فلاح، في الدنيا والآخرة فاتبعوه، وآمنوا به، ﴿و﴾ إلَّا فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ في الكون وفي القرآن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أشد أنواع العذاب، ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم شديد الإيلام.

وبعد عرض السورة للعديد من آيات الله، الداعية إلىٰ الإيمان، وبعد التهديد الشديد علىٰ عدم الإيمان، يقول الحق سبحانه:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

هو ﴿ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بتسخير الهواء والماء، ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿و﴾ ذلك: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ إما بالسفر للتجارة، أو لمصالح أخرى، أو بالغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، أو اللحم الطري وهو السمك، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بهذا التسخير ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم فتؤمنون.

﴿و﴾ هو الله عز وجل، الذي ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس، وأقمار، ونجوم، وماء.. إلىٰ غير ذلك، ﴿و﴾ هو الله عز وجل، الذي سخر لكم كذلك ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة، وشجر، وأنعام، كل ذلك ﴿جَمِيعًا﴾ لمنافعكم، وهذا ﴿مِّنْهُ﴾ إنعامًا عليكم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كله، وغيره ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون.

ولمَّا كان هذا التسخير، وهذا التذكير داعيًا للإيمان، ثم لم يؤمنوا، وغضب المؤمنون عليهم، وأرادوا قتالهم لهذا الكفر والعناد!! بيد أنهم لقلتهم وضعفهم لا يستطيعون ذلك، أمرهم الله بالصبر قائلًا:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

وهذه الآيات الكريمة: تدريب علىٰ الأخلاق الفاضلة، والأفعال الحميدة.

أي: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واتبعوك ﴿يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ﴾ لا يؤمنون، وهم الذين ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ يعني أيام عذابه لهم في الدنيا أو في الآخرة، وفي هذا: دعوة للمؤمنين علىٰ ترك الجدال بغير طائل، ودون فائدة مع المعاندين، وكان ذلك التوجيه ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله ﴿قَوْمًۢا﴾ من شأنهم التجاوز عن النزاع بلا فائدة، وهم المؤمنون ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الصبر علىٰ الأذى، وكظم الغيظ، والصفح طاعة لله، وترك الجدال.

حيث إنه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ عمل ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أساء، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ جميعًا، فيجازي كل واحد بما يستحق.

ثم يرشد ربنا إلىٰ أمر هام يفيد المؤمنين والكافرين، وهو: أن إنزال الكتب ليس بدعًا، وأن ما تقابل به هذه الكتب ليس جديدًا.

حيث يقول عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من قبل هذه الأشياء: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ به بين الناس، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكان أنبياؤهم كثيرين، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أنواعًا كثيرة، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في زمانهم، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: معجزات ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في أمر الدين ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الذي يقتضي اتفاقهم، ووحدة صفهم، وعدم اختلافهم، ولكنهم ما اختلفوا هذا الاختلاف، الذي وقع بينهم إلَّا ﴿بَغْيًۢا﴾ وحسدًا، وعداوة ﴿بَيْنَهُمْ﴾، فهل يتركهم الله بلا حساب، ولا عقاب؟ أبدًا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ عز وجل ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهؤلاء ـ أي: كفار هذه الأمة ـ كذلك.

ولمَّا كان إعراض بني إسرائيل عن اتباع الحق بسبب البغي والحسد، وكفار هذه الأمة كذلك، بيّن الله لحبيبه وللمؤمنين معه طريق الصواب، فقال تعالىٰ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقة، ومنهج ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: من الدين، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أنت ومَن معك، وتمسَّك بها، وأعلنها للدنيا كلها، وادع الناس إليها، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق، ولا يؤمنون به، وكل ما عندهم أهواء وبدع من عند أنفسهم أو شياطينهم.

حيث ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟﴾ لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ينزل

بك، إذا اتبعتهم، ولا تواليهم، ولا تتودد إليهم فإنهم ظالمون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ومَن يوالهم يكون منهم، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فكن ومَن معك تقيًّا؛ ليكون الله وليك وناصرك.

﴿هَٰذَا﴾ الكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ تريهم حقائق الأشياء، وصوابها، ﴿وَهُدًى﴾ لهم من الضلال، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لهم من العذاب، كل ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ منهم أنه الحق، فيتبعونه، ويعملون به لينير بصائرهم، ويهديهم، ويكون رحمة لهم.

وإذا كان الظالمون بعضهم أولياء بعض، والمتقون وليهم المولىٰ سبحانه وتعالىٰ، فلا مساواة إذن بين الفريقين:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: أحسب وظن ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟﴾ مارسوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ في المنزلة عندنا، وفي الثواب منا ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مرضاة لنا ﴿سَوَآءً﴾ أي: مستوين ومتماثلين في ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ كلا وألف كلا، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما يظنون من هذه التسوية بين الفريقين.

لو كان الأمر كذلك؛ لكان كل شيء عبثًا:

﴿و﴾ لكن ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبالتالي، فليس في الكون عبث، ولا يستوي الفجار مع الأبرار أبدًا، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ خلقها الله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر. ﴿وَهُمْ﴾ جميعًا ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وبهذا ظهر جيدًا أن أهل الهوىٰ لا يستوون مع أهل الهدىٰ، ويبيِّن ربنا تبارك وتعالىٰ أن أهل الهوىٰ الذين اختاروه، ومَن كان هذا شأنهم لا يهتدون، حيث قال الله تعالىٰ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أي: أخبرني عن الذي ﴿ٱتَّخَذَ﴾ جعل ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يتبع ما يدعوه إليه، وكأنه يعبده!! ﴿و﴾ قد ﴿أَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ عن الهدىٰ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه ومعرفة بهذا الهدى!! ﴿و﴾ لذلك ﴿خَتَمَ﴾ الله ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع وعظًا، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعقل خيرًا ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يبصر حسنًا، أيهتدي هذا؟ أبدًا ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿ٱللَّهِ﴾ إياه؟ لا أحد أبدًا يهديه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتتعظون، فتستقيمون، فتؤمنون!!

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: هؤلاء الذين جعلوا إلٰههم هواهم، ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: نموت نحن، ويحيا أولادنا، وهكذا، ﴿و﴾ قالوا أيضًا ﴿مَا يُهْلِكُنَآ﴾ ويميتنا ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فليس هناك موت، بل كل شيء من فعل الدهر والزمان، والحقيقة أنهم ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ الذي قالوه ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، ولكنه منهم ظن وتخمين يخالف الحق والواقع، حقًّا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنًّا توهميًّا.

﴿و﴾ كذلك ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة علىٰ وحدانيتنا، وقدرتنا، وحكمتنا، والدالة علىٰ البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ التي يعارضون بها هذه الآيات، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ هروبًا من الإيمان ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ أحياء مرة أخرىٰ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في موضوع البعث.

يقول المولىٰ عز وجل رُدّ عليهم يا محمد:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قُلْ لهم ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ﴾ هو الذي ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء

آجالكم، ﴿ثُمَّ﴾ هو سبحانه القادر على أن يَجْمَعَكُمْ بعد بعثكم أحياء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليحاسبكم، ويجازيكم.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن القادر على الإحياء والإماتة قادر على البعث والإعادة.

وقل لهم أيضًا:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿و﴾ قل لهم ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء، بقدرته وحكمته.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وتبعثون ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المنكرون كل شيء، حيث يصيرون إلى النار.

ولمَّا رد الله عليهم إنكارهم للبعث بدأ في ذكر تفاصيل بعض أحوال يوم القيامة، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَتَرَىٰ﴾ يوم القيامة ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أي: أهل دين ﴿جَاثِيَةً﴾ جالسة على الركب من هول ما ترى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ منهم ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ أي: كتاب أعمالها؛ فيجتمعون عليه ويسمعون، فيقال لهم ثلاث جمل:

الأولى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، على الخير خيرًا، وعلى الشر شرًّا.

الثانية: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا﴾ الذي كتبته الملائكة، وهي تسجل عليكم أقوالكم وأفعالكم بأمرنا ﴿يَنطِقُ﴾ ويشهد ﴿عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، ولا تبديل.

الثالثة: لا تتعجبوا ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونثبته، في هذا الكتاب الذي ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وبهذا يتميز الصالحون من الفاسدين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهنيئًا لهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ الداعية إلىٰ الإيمان ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا؟ ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ لعدولكم عن الحق إلىٰ الباطل.

أيضًا ﴿و﴾ كنتم ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ حق ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، ﴿قُلْتُم﴾ منكرين مستهزئين ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ وما نعتقد في وقوعها، ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ فيها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لا يؤكد حقيقة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ وما نحن بمستيقنين من وقوعها.

يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿و﴾ هذا جزاء الذين كفروا واستكبروا وكانوا مجرمين، حيث ﴿بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ عقوبات ﴿سَيِّئَاتُ ﴿مَا عَمِلُوا﴾ أي قبائح أعمالهم.

﴿و﴾ ليس هذا فقط بل ﴿حَاقَ﴾ ونزل ﴿بِهِم﴾ العذاب جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في الدنيا، ﴿وَقِيلَ﴾ لهم وهم في شدة الكرب ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ ونترككم في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ وأنكرتم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فلم تعملوا له، ﴿و﴾ لذلك ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومسكنكم ﴿النَّارُ﴾ تقيمون فيها أبدًا.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يمنعون عنكم العذاب.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب..!!

﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ فلم تنتفعوا بها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ كذلك ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ببهجتها فاطمأننتم إليها.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يدخلون جهنم، خالدين فيها ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

ولا يطلب منهم العتبىٰ، ومرضاة ربهم؛ حيث فات أوان ذلك، الذي كان مطلوبًا منهم في الدنيا، فلم يفعلوه.

ختامًا، يقول العزيز الحكيم:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يعني فاحمدوه إذْ هو سبحانه خالق السمٰوات والأرض، فهو ربهما ورب العالمين جميعًا.

﴿وَلَهُ﴾ عز وجل ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، والعظمة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لا لغيره، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الأعداء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله، وأحكامه، وشرعه، وقدره.

أي: فاحمدوه، فهو صاحب الحمد، وكبِّروه فهو صاحب العظمة والمجد والسلطان.

سبحانه جل شأنه هو العزيز الحكيم.

* * *

obeikandl.com